الأطياف العجيبة

مريم سامي

قررت، عندما جاء الشتاء فى تلك القرية الباردة حيث الهدوء الذى لا يتخلله إلا صوت الأمطار وذلك فى عام ١٩٩٥م، الذهاب إلى القاهرة حتى أبحث بها عن الشـــيء الذى ســـيغير تلك الحياة البائسة التى لا تنضح بالأمل ليجعلها زاهية ظناً منى أننى ســـأبدع بها أكثر من تلك الحياة الريفية الرتيبة، و ذهبت إلى القاهرة بالفعل، حجزت بفندق صغير.. .

أعلم أننى ســـوف أصل لتلك الأحلام التى لا تفارق خيالى، وذات يوم رحت أجول فـــى الطرقات أبحث عن مواد صالحة غريبة لتلك الروايات التى أحلم أن تغزو العالم فى الأفلام التى تعرض وأخذت أتمشـــى إلى أن أمطرت الســـماء، لم استطع الرجوع إلى ذلك الفندق الذى توجهت إليه عقب أن وصلت إلى القاهرة العامرة..

نظرت فوجدت منزلا كبيراعلى الاتجاه الآخر وجاهدت كثيراً لأصل إليه.

ها أنا أدق الباب حتى يفتح لى ســـاكنه لأحتمى بذلك المنزل إلى أن تتوقف تلك الأمطار عن الهطول.. أشعر وكأنها دموع تذرف من تلك الأرض الزرقـــاء، وتذكرت الأحلام التى أتت لى لأكتبها فى أبهى حلة . لكننى تركتها إلى أن أخطط لها جيداً، وفى ظل شرودى واستنادى على ذلـــك الباب فتح فجأة ثم ارتطمت بالأرض ففزع الرجل الذى قام بفتح ذلك الباب الفخم، وقال فى ذعر واضح على ملامحه: هل أصابك شيء بنى أخبرني.

قلت: لا أنا بخير لا تقلق.

قال: حمداً لله أنك بخير لكن أخبرنى من أنت؟؟!

وماذا تريد؟! .

قلت: أدعى حســـام وأريد أن أمكث لديك بعض الوقت لتجف ثيابى، إلى أن تكف الأمطارعن الهطول وأمضى لحال ســـبيلي.

صمت هذا الرجل صمتاً كأنه دهـــر وخفت أن يرفض أن أمكث هذا الوقت معه، لكنه فاجأنى حيث تفـــوه بتلك الكلمات التى أراحت لهيب قلبى الذى أشتعل أثناء الصمت وقال: أدعى منير ومرحباً بك فى منزلي، سعدت كثيراً بذلك اللقاء غير المتوقع.. أعذرنى لم أنتبه أنك ما زلت تقف.. تفضل.. تشرفت بك كثيراً فى منزلى المتواضع.

دلفت إلى المنزل الفخم وصعقت لما رأيت أثاثا مطليا بالذهب ونقوشه تدل على أنه متين وغريب، ولاحظ هو انبهارى به فقلت: هذا المنزل يشبه القصور، الأثاث أيضاً يسلب العقل.

منير: أعلم.. جلبته من الخارج لأزين به منزلى.. أعتقد أنك تشعر بالبرد ســـأضع تلك الأخشاب فى المدفأة لنشعر بحرارة ذكريات أيام قد ولت وانتهت من تلك الحياة.. هل تود بعض القهوة ؟

قلت: حسناً أشعر أننى أحتاجها حقاً، شكراً لك.

أتـــى لى بالقهوة.. كانت فى غاية الجمـــال ألذ قهوة تناولتها طيلة حياتى..

منير: أتعلم أن جميع الأصدقاء يشهدون أننى أصنع قهوة ممتازة.

فى الحقيقة اندهشت جداً عندما جلب تلك القهوة لى.

قلـــت: هل أنت معتاد مثلى على شـــرب القهوة فـــى كأس؟! غريب ومختلف يا ســـيدى رغـــم كبر عمرك إلا أنك تشـــبهنى كثيراً.

منير: أنا معتاد على ذلك منذ أن كنت فى عمرك.. يتشابه الناس فى بعض الخصال أحياناً لكن ليس جميعها.

نتبهـــت إلى مكتبة عملاقة كبيرة مليئة بالكتـــب الزاخرة مما يبهج الروح والنفس ويسلب اللب.

قلت: لاحظت وجود مكتبة غنية من مختلف العلوم والفنون.

منير: خذ منها ما شـــئت للقراءة اعتبر المنزل منزلك.. سأخلد أنا للنوم.

لم ينتظر الســـيد منير منى أن أخبره بأى شيئا يدور بخلدى، وضعت كأس القهوة من يدى وشـــرعت فى القراءة إلى أن وجدتنى أنظر لتلك الســـيدة التى وجدتها تمد كلتا يديها للناس لتأخذ صدقة وجدتها لى وتبتسم.

مهلاً أنا أقف فى الطريق وأنظر إلى ذات الســـيدة العجوز التى رأيتها وأنا قـــادم إلى ذلك الفنـــدق وتخيلت قصة.. . لتكن هـــى البطلة بها لأكتبهـــا وتكن أولى رواياتي، لكن كيف وأين منزل الســـيد منير؟!

شردت فى كيفية وصولى إلى هنا قليلاً، ما أخرجنى عن ذلك الشرود هو أننى رأيت تلك القطط الســـوداء اللون التى تجمعت حول الســـيدة ووجدتها تصدر شيئا لامعا فى وجهى.. .

أغمضت عينى لشـــدة الضوء وشعرت بمن يربت على كتفي، انتبهت إنها عائشـــة ابنة عمى والتى كنت أحبها قبل أن يتوفاها الله.. ذعرت منها و ابتعدت عنها..

عائشة: ماذا بك؟!

أجابت: أعلم أنك اشـــتقت لى ثم اتبعت بضحكاتها المســـتفزة.. أنا ســـأعلمك ما الذى حدث.. هل تود أن ترى حقيقة ما تراه بأحلامك وبعد ذلك تقرر ما الذى ســـتفعله؟!

وتفتتت ملامحها وتحللت أمامى ووقـــع هيكلها العظمى أرضاً، ظهر طيف يشبهها..

أكافح حتى لا يغشى علىَّ من هول ما أرى، إنها نفسها لكن جسدها تحلـــل أمامى والتراب يغطى المنطقة التـــى كانت تقف عليها، ما تلك الحشرات والعناكب التى تغزو ذلك المكان الذى كان يقف به جثمانها؟!

أهذا حلم أم خيال؟!

أشـــعر بتنميل فى جســـدي، قلبى تكاد خفقاته تصل لعنان السماء، أشعر كأن الأوكســـجين يسحب من المكان.. أشعر بالدوار يغزو عقلى وسأســـقط.. . وبالفعل سقطت، ارتطمت بتلك الأرض فى منزلى التى بعد ذلك تحولت إلى تـــراب من أين جاء وأين أنا الآن؟!

الآن عدت لأتنفـــس قليلاً، وجاهدت بصعوبة لأقف على قدمى، إذ بى أرى حولى قبورًا تملأ المكان، ظهر لى طيف عائشـــة..

عائشـــة: لم أكن أعلم أنك ترتعب من أقل الأشياء لا تخف وهيا بنا ســـينقلك هؤلاء اللطفاء إلى حيث حدث ما لم تتوقعه.

عندما نظرت لما أشارت إليه عائشة ووجدت العديد من الأطياف تخرج من القبور، تحملنى ولم أظن أبداً أننى ســـأجد نفسى معلقاً فى السماء، وأرى أننى أتشـــاجر مع سمير ذلك الشاب البغيض الذى لا أعلم كيف يكون من أقربائى!!.. .

بعد ذلك وجدته يرحل ووجدتها بجانبى تقول لي: ســـتعرف ما هو أفظـــع، جميع من معك قاموا بإخفاء ما حدث عنك، ولابد أن تعلم ما حدث منذ البداية، اشـــتقت إليك كثيرا، ستأتى لى قريباً و اختفت..

وبعـــد ذك وجدت الدنيا تظلم من حولى لأجدنى معلقاً فى ســـقف غرفة ومعى تلك الأطياف تحاوطنى وهى متمسكة بى وجدت بابا يفتح ووجدت سمير يدخل، يضيء الغرفة ويقول: ســـأريك وسأحرق فؤادك، و أســـلب لك لبك لابد أن تعلم من هو سمير.

وجدتها تقول: راقب ما سيفعله، لا تنسَ أن تخبر الجميع بما حدث.

قلـــت لها والكلمات تنـــازع لتخرج من فمى بمنتهـــى الصعوبة: أنتِ تعلمـــين أننى لم أصدق أن الذى حدث لك مجـــرد حادث، لكن ما باليد حيلة، أنتِ خير من يعلم كم جلســـت فى المشفى بعد أن صدمتى بخبر وفاتك.. .

عائشة: أعلم هذا كله.. فقد كنت هناك وتابعت كل ردود الأفعال، كان الكثير منهم يجاهـــد لإخفاء الحقيقة عنك حتى لا ترتكب ما لم ولن أسامحك عليه إن فعلته.

اختفت ورأيت سمير يذهب إليها، وهى تقوم بشـــراء أشـــياء للمنزل وكان الحوار:

سمير: عائشـــة هل من الممكن أن تأتى لتساعدى معى امرأة عجوز لا تقوى على الحركة الآن لنوصلها للمنزل.

عائشة: بالطبع فلا تنسَ أبداً أن المساعدة هى خير ويجب فعلها إلى أن تنتهى كل الأنفاس بداخل صدرى..

ذهبت معه ورأيت ســـيدة تجلس، وما أن اقتربت عائشة منها حتى أتى سمير من خلفها ووضع المنديل المبلل على أنفها وفمها وبعد ذلك غابت عن الوعى.

وجدته يحملها ويذهب بها إلى (غيط) بعيد، وكل هذا يتم والأطياف تأخذنى إلى حيث يذهب.

وجدتـــه ألقاها أرضاً و يفعل أســـوأ مما تخيلـــت.. لا بل أفظع مما يتخيله عقل بشـــرى يلقى على وجهها صـــودا كاوية حرقت وجهها ثم فعل الأفظع جلب مشرطًا وقطع شراييها ووضعها أمام سيارته فى طريق مهجور وقام سمير بدهس عائشة..

أنا أشـــاهد ولا أعرف ماذا أفعل أيمكـــن أن يكون فعل كل ذلك بها، ولم يخبرنى أحد سأنتقم منه حينما ينتهى كل ذلك.. حينها سمعت صوتها يتردد حولى ورأيت طيفها أمامى وهى تقول: علمت ما سوف تقوله وحمدت الله حينها أنك لم تعرف شـــيئاً، وأن قلبى مطمئن الآن أنك لن تفعل له شيئاً لأنه توفى ولم يعد موجودًا لتنتقم منه.

تركتنـــى الأطياف أرضاً مما تســـبب بفقدانـــى للوعي، أفقت لأجد أن المـــكان تغير بالكامـــل وأقف فى الجامعـــة دون أن يرانى أحد وحينها رأيت جيهان، تلك الفتاة المدللة التى كانت تحاول الاقتراب منى، رأيت المشـــاجرة التى حدثت بينى وبينها، رأيتها تفعل شـــيئاً غريباً إنها تذهب لشاب آخر، تجلس معه..

كان هذا الشـــاب عاشقًا لها وسمعت ذلك الحديث الذى دار بينهما ووجدت أننى دخلت إلى جسده رغماً عنى، فلم أجد سبيلا آخر؛ فأنا نسبة إلى الماضى مجرد روح هائمة..

أريد المعرفة حقاً لماذا يحدث ذلك لي؟! أنا لم أسترح قط من عناء ما رأيته.. . أبشـــع الصور التى يمكن أن يراها إنســـان فى أعز مخلوق لدى وهى عائشة رحمها الله..

وجد ذلك الشاب يقابلها، تقول له: هل أنت تحبني؟!

قال: نعم وأفعل أى شـــيء لأحصل على الرضا منك لا تحرمينى من مساعدتك فى أى شيء؛ لأن هذا يسعدنى ويدق الطبول على باب قلبى فرحاً بك.

وجدتها تقول: ســـتأتى معى إلى قصر البارون الســـاعة الثانية عشرة ليلاً.

شـــاهدت الذعرعلى ملامح وجه الفتى وأطراف أصابعه التى ترتعش جداً وأكملت حديثها قائلة:

- حسناً لا تفعل لكنك ستكون جباناً بلا شك، سأقول للجميع إنك تخاف من دخول ذلك القصر معى ليلاً، وأنت تعلم كيف لن تسلم منهم هل ستدخل معى أم أنك صرصور خائف.

ووجدته خانعاً لها..

وسمعت صوتاً من خلفى لا يتبين مصدره يقول:

- تلك الفتاة عاملتها بقسوة أدت إلى ما هى عليه الآن، أتعلم أن ذلك الحديث مع الفتى بعد فترة مما فعلت أنت ترى الآن ما تسببت فيه أنت.. واختفى ذلك الصوت، أنا ما زلت أراقب ما يحدث والخوف يبادر يحرق قلبى وعقلى، كما يفعل بحال ذلك الفتى الذى لا أعلم ولا هو يعلم ما سيحدث له..

تصنع الشاب الشجاعة وقال: سآتى معك أنا لا أخشى شيئاً سأفعل أى شيء من أجلك.

ودعته على أمل أن تلتقيه فى تمام الثانية عشرة، كما كان الاتفاق معه وأن يرتدى الأسود ليلائم المكان وقالت: ستثبت لى أنك مغوار وسنخوض مغامرة لم أر مثلها، ستجعلنى أملك تلك الحياة.. عدنى أنك لن تتخلى عن الموعد. ورحلت قبل أن يتكلم ورأيته خائفًا، ذهب إلى منزله وأغلق الباب يفكر فيما يفعله، سمعت أفكاره وهو يقول: أنا أعلم أننى ضعيف وأديت أمامها دور الشجاع وانا يكاد الخوف يأكل قلبى.. . لا يمكن أن أتراجع الآن، لكننى أشعر وكأن خوفى مثل خوف الفريسة من الأسد الجامح الذى يطاردها..

أنا أشـــعر أن ذلك الشاب على حق، أنا غير مطمئن ذلك الإحساس الذى يتخللنى أن ذلك الشـــاب سيواجه شرا ما لا أعلم ما هو؟!

ســـأعرف قريباً، ما زلت داخل جسد الشـــاب وهو يقف ينتظر جيهان أمام قصر البارون، ذلك القصر الشـــاهق الذى يعد أثريا ولم أكن أعلم عنه شـــيئاً وطال الانتظار إلى أن جاءت بلباســـها الأسود القصير وكل مساحيق وجهها سوداء..

دخلت هى والشـــاب القصر لم تكن هناك أضـــواء داخل هذا القصر، وهناك نور خافت من جانب غرفة بقلب ذلك الظلام المخيف، كان ضوءًا لكشـــاف وعندما سلطوا الأضواء على أنفسهم دب الرعب فى قلبى وقلب الشاب وارتجف رجفة لم يلاحظها غيرى بالطبع..

ووجدتنى أخرج من جسده وأصبح غير مرئى.. رأيت ظلا أسود يظهر ويضيء كل الغرفة باللون الأحمر من عينه الحمراء، ووجدتهم جميعهم يسجدون نحوه والشاب مذهول، ولا يرى غير أنهم يسجدون للفراغ، وجدت أحدهم يرســـم نجمة خماســـية بالدماء التى تقبع أمامه، وجدت ذلك الشاب يحاول الهرب واثنين يمسكانه كأنه يساق لكن لم يكن هناك بشر بل أطياف سوداء عديدة تمســـكه بشدة و تخور قواه ويحاول الإفلات من شخص مجهول، أخذته الأطياف و اصطحبه اثنان من الحضور إلى تابوت حديدى عليه جمجمة ومرســـوم على بابه أيضا نجمة خماســـية، جلس واحد من الحضور، بدأ يتمتم بلغة غير مفهومة ووجدت الأطياف تحوطه وتتحـــول إلى هياكل عظمية يمزقون ملابســـه و يجرحونه فى أماكن متفرقة من جسده، حمله الحضورالى منتصف النجمة الخماسية ومدت جيهان يدها بسكين منقوش عليه العديد من الطلاسم واقتربت من رقبته

وفصلتها عن جسده، ملأت الكؤوس من دماء ذلك الشاب المسكين، شعرت بالغثيان الشـــديد وســـأفقد الوعى... أغمضت عينى فوجدت الصوت يتكـــرر: لا تخف مما رأيت، لا تخف مما رأيت، افتح عينك الآن..

قمـــت بفتحها بهدوء وفاجأنى ما حدث جداً لا أعلم أن كل ما رأيته حقيقى، كيف هذا أنا أمام تلك السيدة العجوز ومازالت القطط تجلس حولهـــا وكانت قبل ما حدث تبتســـم لى لكنهـــا الآن لا تلتفت لى رغم أننى أقف أمامها مباشرة ووجدت القطط عيونها تصبح حمراء.. وواحدًا من ضمن القطط يقترب منى وينظر لى، واختفى وتدريجياً بدأت أشـــعر بأن أحدهم ينظر لى ويحوطنى.. . ثم أحسســـت بصهد يلفنى ثم وقف الصهد أمامى مباشـــرة، بدأت نبضات قلبى تعلو والخوف يزداد من كل جانـــب، إلى أن بدأت هالة ضوء حمراء تظهر علـــى هيئة طفل صغير أو كائن صغير، ظهر دخان أحمـــر أمامى وتحول الدخان إلى طيف لطفل صغير تبين ملامحه أن لديه سبع سنوات وأشار لى أن أتبعه، وجدت تلك الســـيدة ترحل ومن حولها هى لا تراهم ولا ترانى..

تبعت الفتى إلى أن دخلت تلك الســـيدة فيلاً فخمة لا يمتلكها سوى العظماء والأغنيـــاء وجدتها تدخلها وتبدل ثيابهـــا لتصبح امرأة ثرية ووجـــدت رجلا ثريًا يدخل من باب الفيلا ويقول لها بعد أن شـــربا أفخر المشروبات:

- حان الوقت للاتفاقات على الصفقة التالية، مطلوب خمســـون قلبا وخمسون كبدا، هناك صفقة ثانية ســـنتفق عليها بعد هذه الصفقة.

قالت العجوز: بهذه السرعة ماذا تفعلون بهم؟!

الصفقة السابقة لم يمر عليها وقت كبير إنه أسبوع فقط.

الرجل الثـــري: أنتِ خيرعليم أن تلك الأشـــياء لا تأخذ وقتاً وأنهم يريدون أكثر وأكثر، نحن لم نسألك ماذا تفعلين لتأتى بتلك الصفقة.

قبل أن تجيب السيدة العجوز وجدت كائنًا يتكلم فى أذنها بحديث لم أسمعه.. .ثم نطقت: لم أقصد بالطبع شـــيئاً ثم كم من الوقت لأكون على أتم الاستعداد لتجهيز الصفقة.

الرجل الثري: أسبوعان وتصبح الشحنة جاهزة.

بعد انتهاء حديثهم الذى لم أكمله لأننى وجدت الطفل يشير لى أن أتبعه إلى تلك الغرفة، ذهبـــت فوجدتها مظلمة، انتظرت.. . فوجدتها تأتى وتفتح تلك الحجرة المعتمة وتفتح الضوء وتدخل لأخذ ثلاث جثث لأطفال مفرغى الأعضـــاء.. نظرت للطفل النائم وقالت له ســـتموت قريباً، سآتى بآخرين..

ظهر الكائن فقالت: قل لى من اخترتم، أسرع فالوقت يداهمنا.

شاهدت إشارة من رأسه بالموافقة.

بعد ذلك وجدتها جالســـة على الطريق، ذلـــك الكائن يخبرها فى أذنها عن ذلك الفتى فتقوم بتنويمه مغناطيسياً وتأخذه وتفعل به مثل الآخرين..

لم أشعر بذلك قط إلا عندما وجدت أننى ما زلت بمنزل أستاذ منير، كيف حدث هذا! أكل هذا حلم؟

أنا مازالت ممسكاً بالكأس..

تجولت بجانب المكتبة أفكر، ولا أجد تفسيرا لكل ما رأيته أيمكن لهذا أن يحدث حقاً؟!

خطوت بضع خطـــوات تجاه الممر الذى لم أتأملـــه عندما دلفت من ذلك البـــاب، ولكن ما هذا؟ لماذا أتى الســـيد منير هنا؟!

لماذا يقع على وجهه على الأرض؟!

اقتربت منه هززته ولم يفق، ظننت أنه يعانى من حالة إغماء..

حاولت أن أجعلـــه على ظهره وأتبع الإســـعافات الأولية.. .ثم رأيت بركة من الدماء تحته فوجدت منطقة القلب تســـيل منها دماء ووجدت الســـيدة العجوز تجرى وما أن لحقت بها حتى حدث شئ غريب أظلمت الدنيا من حولى وســـقطت مغشياً علىَّ..

ووجدتنى أفيق وتلك الســـيدة بجانبى ارتعدت وابتعدت.. . وزلزل قلبى من الخوف الذى تملك كيانى.. . التفت حولى شـــاهدت قطعة أرض مهجورة عوضاً عن المنزل..

قلـــت لها، وأنا أتصنع عدم الخوف داخلى رغم أن قلبى يكاد يقفز من بين أضلعي،: ماذا تريدين مني؟؟! أنا أعلم ما تفعلينه وســـأبلغ عنك.

السيدة العجوز: وهل سأقضى تلك العقوبة مرتين؟!

قلت: كيف أنا لا أفهم؟!

السيدة العجوز: سأشرح لك، لكن لا تقاطعنى وأنا أقص عليك ما حدث.

قلت: موافق.

السيدة العجوز: بعد أن رأيتنى ذات مرة أجعل طفلا صغيرا يأتى معى ورأيتنى أقتله أبلغت الشرطة وحينها لم أشعر إلا وأنا أقول لك: يجب أن تعلم أننى سوف أنتقم منك، ستنسى كل ما مر بحياتك و ستكون شخصية غير شخصيتك وستسمى باسم غير اسمك ويدعوك الناس جميعاً به.

السر كله فى كأس القهوة.. . هذا الكأس يمكن أن تستخدمه مرة واحدة فقط، فهو يحقق أمنية للشخص ويختفى ولا يظهر لهذا الشخص مطلقاً.

وأنت من قمت باستخدام الأمنية وأخبرتك حينها بصوت الخوف إن أخذته أنه له أضرار صغيرة، كانت أمنيتك أن تتذكر كل شيء حدث لك وفقاً لتصرفات ظننتها خاطئة وتتذكر كل شيء عنك.

أنا من قتلتك أنت هو منير بهوية غير هويتك.. . سترجع إلى نقطة البداية، ويبدأ كل هذا من جديد و لا تنسى.. .لا تحتك بى يوماً.

وجدتنى فى منزلى، وعندما سألت عن التاريخ كان بتاريخ عام قبل أن يحدث كل هذا، بعد ذلك ظهر الكأس مع عائشة.. . .

لقد عشت الحاضر بكوارثه.. .كأنه بالفعل مر...